حوليات جامعة بشار
Annales de l'Université de Bechar
N°09, 2011, العدد 09
ISSN : 1112-6604

النصّ الشّـاهـد

أ، د : تحريشي محمد .
أ : مرين محمد .
جامعة بشار

الملخص

"إيزابيل ابرهاردت" Isabelle Eberhard(1877-1904)الصحفية والأديبة و الرحالة الفرنسية ، من أصول روسية ، وأم ألمانية ، و أب اختُلف في هويته ، استقرت بالجزائر وتنقلت بين مدنها و بلداتها شمالا وجنوبا ، الجزائر ، عنابه ، باتنة، العين الصفراء، بشار القنادسة ، ... تزوجت " سليمان أهني " من وادي سوف ، و عُرفت بترحالها و حبها للصحراء والحياة البدوية و لباسها لزي الفرسان العرب ، كما عُرفت بتعدد لغاتها ومناهلها الفكرية و عملها مراسلة في الصحراء لمجموعة من الجرائد الفرنسية الصادرة بالجزائر ... و تُوفيت في ربيع حياتها خلال فيضانات العين الصفراء 1904، بعد عودتها من رحلة إلى منطقة السّاورة أين أقامت بزاوية " القنادسة " ، تركت مجموعة من المقالات و القصص والنصوص التي جُمع معظمها في كتابين تحت عنوان : ملاحظات الطريق NOTES DE ROUTE ، و" في ظلال الإسلام الدافئة" DANS L'OMBRE CHAUDE DE L'ISLAM.

الكلمات المفتاحية : النص الشاهد، الأسلوب الصحفي ، سرد الحدث، منظور السياق

تتميز نصوص " إيزابيل " بعمق اللغة و كثافة المضمون ، و الجمع بين الأسلوب الصحفي و السردي، فنجدها تنقل الخبر و الحدث بخطاب سردي، وهذا الخطاب بدوره محمّل بالخبر و وصف الحدث الواقعي، في ظل الأحداث التي كانت تعيشها الجزائر بداية القرن العشرين و الواقع الاستيطاني ، الكولونيالي ، المهيمن على حياة الجزائريين ، فجمع خطابها بين جمالية السرد و قيمة الخبر، وبينهما تتسرب الحقيقة ، و تفلت من حصار التعتيم الاستعماري ، كما كانت تفلت هي من دروب الصحراء المرملة و فجاجها الجبلية ، و أخاديد كثبانها الرملية ، كغزالة صحراوية مطاردة ، كانت مطلقة الكتابة سوى من فكرها ، فهي من خلال و ضعها الغامض ، لم تكن مضطرة لتمرير الحقيقة تحت الصمت المهيمن يومها .

(Elle était libre l écrire ce qu'elle pensait ou, que par sa position ambiguë elle n était pas obligée de passer sous silence certaines vérités)[i]

كانت مهووسة بتسجيل التفاصيل ذات الدلالة في تصوير المكان و الزمان و الشخصيات ... وصفا ماديا ظاهريا ، ووصفا يغوص في المشاعر و النفسيات بما أعطى لخطابها قيمة متعددة المضامين ، ومن إفادات نصوصها إحالة و استدراج الضوء إلى شخصيتها الغامضة و المحاطة بهالة من العجائبية ، نسج الباحثون حولها مسحة من الأسطورية و الغرائبية لحد تداول أسئلة الشك حول نواياها و علاقاتها المعقدة والهمز نحوها بحالات الجوسسة لذلك فإن نص " إيزابيل ابرهاردت " هو نص شاهد في إجلاء الحقيقة التاريخية في منطقة نائية مهمشة ، وكذلك حقيقة الشخصية المبدعة ، التي أُحيطت حياتها بالغموض ، الذي جعل الباحثين يترددون بين اعتبارها مجرد رحالة ومغامرة و أديبة وفي المقابل طرح الشكوك والاحتمالات الظنية التي تفتقد إلى أي دليل تاريخي ملموس باستثناء أسئلة استنتاجيه لا تصل إلى القرائن[ii]

= سرد الحدث و منظور السياق =

كانت " إيزابيل " مندمجة في الواقع العميق للشعب الجزائري ، وعايشت الكيان الاجتماعي للجزائريين ، وتأثرت به ، ودافعت عنه ، وفي وقت كانت الشعوب المقهورة تعيش على هامش الاهتمام الإعلامي ، حاولت كشف حقيقة ما كان يجري من خرق للقيم الإنسانية وبشرت مبكرا بإخفاق مشروع القهر ، و نقلت أحداث واقع صراع بين قوة احتلال قاس ومقاومة شعبية ، بقيادة الشيخ بوعمامة ، و قبائل الصحراء ، في ظرف إعلامي فرنسي مضلل ، و غياب عربي ، و على الرغم من و صف الإعلام الفرنسي الواقع بالسهل و الطيّع فإن "إيزابيل " كانت الشاهدة الجريئة التي أبرزت وجه الحقيقة وواقع الحال ، و فضحت أسلوب الرقابة الاستعمارية (فأسلوب الرقابة و طريقة المقص أصبحت سارية المفعول ضد البرقيات الخبرية ، وهذا تجنبا لتسرب هاجس الاسم الذي ملأ ، منذ 25 سنة ، صدى الجنوب الوهراني ، الاسم القديم أصبح أسطورة و الذي طرق بغرابة مقلقة الواقع هنا إنه بوعمامة)[iii] إنه الخط الذي رسمته لنفسها في كتاباتها ، و هو الدفاع عن الأهالي الجزائريين ، وتأتي إبداعاتها لكي ترجح الجدل التاريخي لصالحها ، إن أهمية النص الأدبي تكمن في قيمته التاريخية و الإيديولوجية ، لأن وجهة النظر في النص الأدبي تتجاوز البعد اللغوي و الجمالي لأن (وجهة النظر هي الخالقة للموضوع كما أكد دو سوسير و ليس العكس كما هو سائد عند قطاع واسع من باحثينا) [iv] فاختيار المضامين ينمّ عن وجهة نظر و موقف قيمي ، لقد قدّمت الكاتبة نصوصا سردية تحمل و جهة نظر منحازة إلى الناس .

قامت " إيزابيل " بتصوير الواقع الجزائري المنكوب بوجود الاحتلال ، في مجموعة من القصص ، صورت فيها أساليب الاحتلال وممارساته القمعية و الاستيطانية ، منها قصة "فلاح " و قصة " مجرم " و عملية اغتصاب الأراضي من مُلاكها الأصليين (كان الفلاحون يتكلمون قليلا مهمومين ، خلف هيئاتهم المنقبضة و المنسحقة ، كانوا سيدفعون لهم قبل طردهم النهائي ، المكتسبات التي راحوا يعدونهم بها ، هم الفقراء و البسطاء) [v] و هكذا تصور القصة كيف تحول الفلاح ، صاحب الأرض من مالك إلى خادم " خماس " مقهور و مسترقّ عند المعمر الغريب (وجد " عاشوري " نفسه في الفاقة التامة بعد أن نفد ثمن مواشيه ، فعمل مستخدما في مزرعة للسيد " غيَار " و هو المستعمر الذي ملك القسم الأكبر من الأراضي) [vi] فحالة الفلاح كانت حالة عامة ، كما وصفتها الكاتبة في موضع آخر

(La vie du fellah est monotone et triste comme les routes poudreuses de son pays)[vii] .

فحياته الرتيبة و الحزينة تشبه حالة الطرق الترابية في بلده ، بلده المنكوب بحالة الاحتلال ونظامه القمعي العنصري ، ولم تُخف " إيزابيل " موقفها المعلن منه سواء في مقالاتها الصحفية كما في نصوصها السردية ، ففي قصة " النقيب " تكشف صدم هذا النظام للنزعة الإنسانية بما في ذلك لضمير الفرنسيين غير العنصريين، فمن خلال شخصية المجند " جاك " المعترض على طريقة التعامل العسكري للأهالي و إذلالهم (لماذا السيطرة بالرعب ؟ لماذا إدخال الخشية في قلوب الناس التي ما هي إلا نوع من النفور و الخوف ؟ لماذا التمسك بالطاعة العمياء المطلقة ؟ تساءل جاك و بكل صدق ثار ضد هذا النظام الذي سحق الناس ورفض أن يتبناه) [viii] وبرمزية تنقل الخاص إلى العام ، في قصة " ياسمينة " تصور حالة العشق بين المجند الفرنسي و الفتاة الجزائرية تصويرا يوحي بالعلاقة بين الاحتلال و البلد المغتصَب ، فعلاقتهما المستحيلة تنتهي بالفشل و صوت الضمير الإنساني الذي يطارده (كل أسبوع عندما يقترب يوم الأحد ، كان " جاك " يحدث نفسه ، بأنه يتصرف تصرفا شريرا وأن واجبه يقتضي أن يترك هذا المخلوق البريء في سلام ، فلا شيء يجمع بينهما وهو بالتالي لا يزيدها إلا معاناة) [ix] وبذات الحقيقة و الرمزية بحبكة سردية مختلفة تصور حالة " تاسعديت " ضحية تقاليدها القهرية و محاولة اغتصابها من أحد الضباط في " الوادي " كان (يحترف كره العرب ، يحتقر كل المدنيين المؤتمرين بإمرته ، ويرعب أبناء الماعز و كل من يلبس البرنس الرث ... أصبح إذن" دي لافو " القائد الوحيد الحقيقي " الحاكم الكبير " الكل يخافه حتى الفزع ، الكل يخدعه عند الإمكان ، وإذا أراد الله ستلقاه يوما رصاصة خلف أحد الكثبان)[x] فقاومت " تاسعديت " كما كانت تقاوم الصحراء بعنفوان رمالها و صبر جمالها وكبرياء

نخيلها (دافعت عن نفسها بأسنانها و بأظافرها فلم يقدر على الاقتراب منها وعند منتصف الليل أمر بإعادتها إلى السجن غاضبا) [xi] وكل قصة من قصصها يتداخل الواقع بالخيال و التاريخ بالحكي و المنظور بالمضمون و الأدبي بالإيديولوجي وشعرية الوصف وجمالية السرد بالتقرير الخبري دون إخلال بروح القصة و سحر قراءتها ، فيحمل السرد عندها ما حملته المراسلات الصحفية و الملاحظات اليومية ، تقول مدافعة عن نفسها أمام حملات التشويه (لست متعاطية للسياسة ، ولست جاسوسة لأي حزب كان ، لأنهم بالنسبة لي كلهم مخطئون في تخبطهم هذا ، ما أنا إلا امرأة غريبة الأطوار ، حالمة تريد أن تعيش بعيدا عن العالم المتحضر في حياة حرة بدوية ، ثم تحاول بعدها وصف ذلك) [xii] وتفاعلت لغتها باللغة الشعبية إلى حد دمج المتداول الشعبي في نصوصها باللغة الفرنسية ، فتصادفك في نصوصها كلمات مثل :

(cheikh , djellaba , djich , douar , chaik, koubba, ksar , mlahfa…)

وأحصى لها "محمد رشد"مئة كلمة من اللغة الدارجة في كتابها"في ظلال الإسلام الدافئة "[xiii] كما تفاعلت مع الحياة الصحراوية بلباسها و طريقة حياتها وممارسة طقوسها الطرقية وزيارتها للزوايا و حبها للبلدات الجنوبية و دقة وصفها لمشارفها و منازلها وحياة الناس فيها ، تصف ولوجها " بشار " مع الدرب الرملي حيث ينحني الوادي بانسياب ، في اتجاه الحزام الأخضر للوادي ... وفي الداخل على أرض ممهلة و صامتة تابعت سيرها مع أزقة متهالكة حيث تظهر المنازل الطوبية المتواضعة ...

(A Béchar au pied de la dune la vallée s'incline insensiblement vers la ceinture verte de l'oued … a l'intérieur sur la terre douce et silencieuse nous suivions des ruelles en ruines de longs passages couverts…les hautes maisons en toub)[xiv].

وبذات الدقة في وصف التفاصيل للبلدات تصف " القنادسة" و قصرها الطّوبي ذي البيوت المتراصة في فوضوية أنيقة ذات الأسطح المتراكبة في انسياب ، المحاطة ببساتين النخيل الخضراء والرمال الذهبية معمدة الحجارة الغشيمة ...

(kenadsa monte devant nous grand ksar en toub de teinte foncée et chaud précédé vers la gauche de beaux jardins très verts le ksar dévale en un désordre gracieux de terrasses superposée suivant la pente douce d'un monticule a droit la dune dorée avec ses entablements de pierre se dresse presque abrupt)[xv].

إن نص " إيزابيل ابرهاردت " يبقى شاهدا لكل دلالة يتقبلها انفتاح النص كشاهد قبرها وأطلال بيتها بالعين الصفراء أو الوادي أو أمكنتها السردية من العاصمة إلى زاوية القنادسة أو قصص نسائها البدويات أو سحر مشاهدها الصحراوية بقوافلها و كثبانها و دروبها ونباتاتها و نايات رعاتها و سكون زواياها و روايات العشق و الخوف فيها .